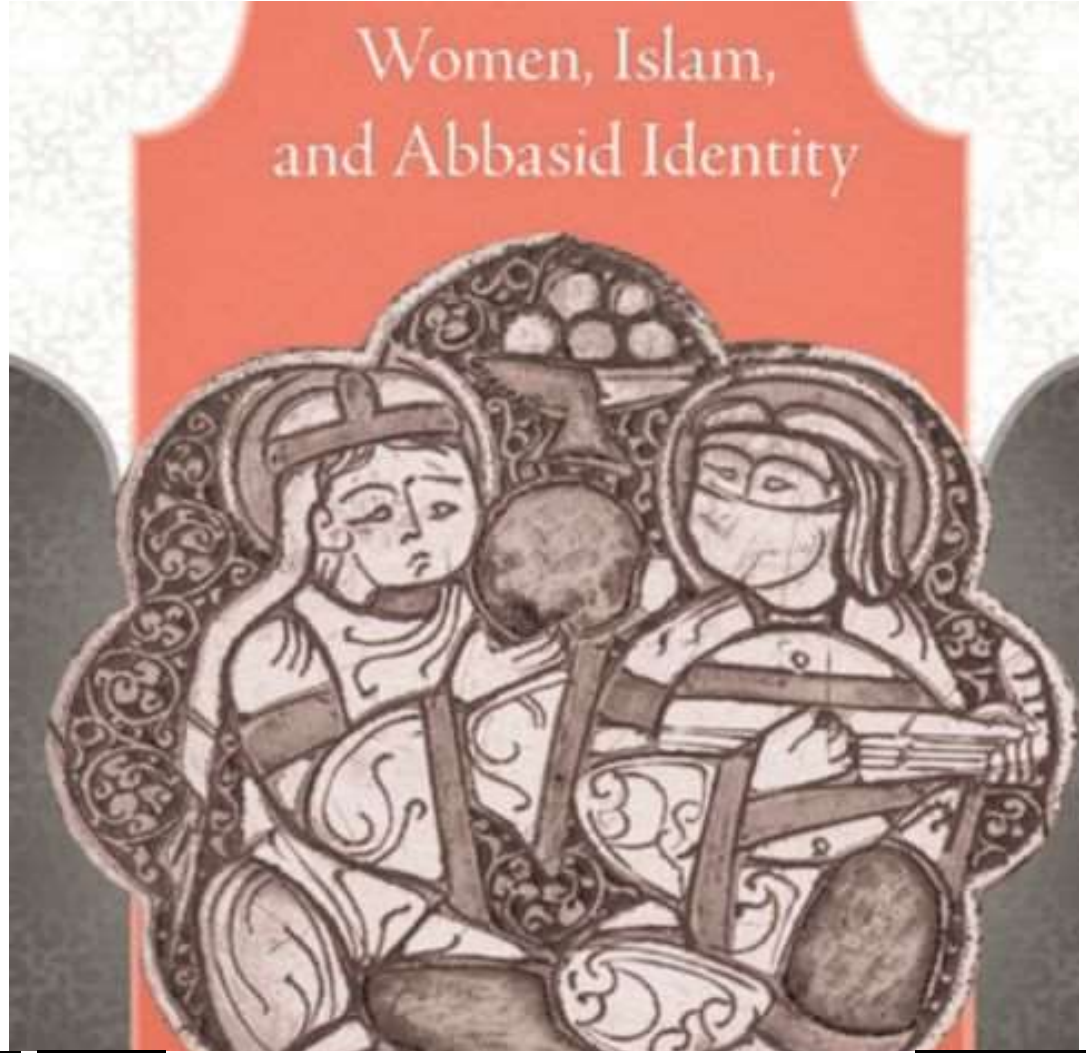


النساء والإسلام والهوية العباسية في كتاب

بلال الأرفه لي | 04/12/2015 03:10:05 م



كيف تعبر القصص المعنيه بالنساء عن فضايا إسلاميه كبرى تخص الجماعه والهوية والعقيدة والنظام الأخلاقي والاجتماعي؟ هذا هو موضوع كتاب «النساء والإسلام والهوية العباسية» للمؤرّخة ناديا - ماريا الشيخ الصادر أخيراً عن دار نشر جامعة هارفرد. يتتبع الكتاب تاريخ ظهور الإسلام و تطوره في الفترة المبكرة وينتقل إلى تشكّل الوعي الإسلاميّ بالأمة في العصر العباسيّ، من خلال روايات عربيّة - إسلاميّة تُعنى بقضايا النساء أو تدور حول أخبارهنّ، منذ فترة ما قبل الإسلام وصولاً إلى العصر العباسيّ ضمناً.

ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً أو عربياً في الفترة العباسيّة؟ تبين المؤرّخة في مقدّمها كيف أنّ تحدّي الجاهليّة كان أمراً مهماً في تشكيل الوعي الإسلاميّ المبكر. إذ تركّز الأخبار العباسيّة التي تُعنى بالجاهليّة على إظهار الفروق الأخلاقيّة والمعرفيّة والايديولوجيّة بين الجاهليّة والإسلام.

والإسلام يَجِبُ ما قبله، لكنّ النزعة الجاهليّة لم تستسلم بسهولة، وقد عاش المجتمع الإسلاميّ أحداثاً كان الإنزلاق فيها نحو الجاهلية أمراً وارداً، منها وفاة الرسول وأحداث حروب الردّة التي تلتها على سبيل المثال.

تنطلق الدراسة من نصوص وروايات وأخبار تعنى بالنساء وتتبع نماذج لنساء شكّلت تحدياً للأسس التي قام عليها النظام الإسلاميّ الجديد كالنائحات والقرامطة ونساء الروم، أو لنساء مثلن من خلال أدوارهنّ الاجتماعيّة وتصرفاتهنّ الأخلاقيّة سماحة الدين الجديد وصرن قدوة تُحتذى. وتؤكد الشيخ في كلّ فصل من كتابها أنّ الأسئلة والقضايا والصور النمطيّة المتعلّقة بالجنس والجنوسة تلعب دوراً مفصلياً في مشاريع بناء الهوية.

وتعرض الشيخ في مقدّمة كتابها مقاربات عدّة حديثة لدور المرأة في المجتمع والسلطة الإسلاميّين، الأمر الذي يسهل على القارئ غير المتخصّص متابعة تحليلها. لكنّ المؤرّخة لا تنظر الى التاريخ الإسلاميّ من منظور الجنوسة فحسب، بل تعتبر الإسلام نظاماً معقّداً. فراها تطرح قضايا الجنوسة في ضوء القضايا السياسيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والفكريّة الأخرى. فالمجتمع الإسلاميّ المبكّر، كما تظهر الدراسة، كان سريع التغيّر، تتنوّع فيه الفرق والطبقات الاجتماعيّة. ولهذا تطرقت المؤرّخة في تحليلها لهجوم الفرق المختلفة كالشيعة والخوارج والقرامطة وأهل الحديث، وللقضايا الفكرية مثل خلق القرآن وتعريف المسلم والكافر وموقع مرتكب الكبيرة، علاوة على الأحداث التاريخيّة الكبرى من حروب الردّة والتوسّع الإسلاميّ في سورية والعراق ومصر والأندلس وشمال أفريقيا وما وراء النهر.

والنصوص بحسب المؤرّخة، وإن كانت تسرد أحداثاً تاريخيّة، فإنّها لا تعطي حقائق بقدر ما ترسم صوراً للعلاقات المعقّدة بين المكوّنات المختلفة للمجتمع العباسي. ويمثّل الكتاب نموذجاً يحتذى في دراسة التاريخ العربيّ- الإسلاميّ ومعالجة النصوص العباسيّة بشكل نقديّ. فالمؤرّخة على تمام الوعي بأنّ الأخبار عن «الجاهليّة» وحتىّ الفترتين الإسلاميّة الأمويّة وصلتنا من خلال مصادر عباسيّة تخدم أيّدولوجيّة آنيّة. ويلاحظ تنوّع مصادر الكتاب من أدب وسيرة وتاريخ وحديث وتفسير وفرق وردود.

ن الدولة الأمويّة.

عادت الرسول وتسببت في مقتل عمّه حمزة في فترة حرجة من التاريخ النبويّ. وتخلص الباحثة إلى أنّ التركيز على هند وجاهليّتها في المصادر يخدم الهوية الإسلاميّة بلباسها العباسيّ. غير أنّ صورة هند في المصادر تتغيّر بعد إسلامها، كيف لا وقد صارت صحابيّة؟ تميّز الباحثة بين صورتين مختلفتين لهند، واحدة جاهليّة وثانية أمويّة إسلاميّة، وتتبع التطوّر الأخلاقيّ لهذه الشخصية وتقرن بينها وبين معاصراتها المسلمات.

يركّز الفصل الثاني على دور المرأة في مراسم الرثاء وطقوسه. فالطقوس الدينيّة، بحسب الشيخ، ترسم حدوداً بين المجتمعات والفرق الدينيّة، لذا فإنّ المجتمع الإسلاميّ المبكّر سعى لإيجاد طقوس خاصّة به في ما يتعلّق بالموت وطقوس الدفن والتشييع. تدرس الشيخ هنا دور النائحة والنياحة عموماً في المجتمع الإسلاميّ، وتسلسل الضوء على نساء لم يلتزم القيوود الجديدة وأصررن على استمرار النموذج الجاهليّ في التعبير عن الفجيعة والفقد. فالنواح والنحيب

بالمنظور الإسلاميّ اعتراض على المشيئة الإلهية، ولكنهما في الوقت نفسه اعتراض على واقع قائم. شكّل هذا الاعتراض برأي المؤرّخة منطقة وسيطة بين ما هو إسلامي وما هو جاهليّ. يدرس الفصلان الثالث والرابع صورة «الآخر»، الآخر القريب (القرامطة) والآخر البعيد (بيزنطة). والقرامطة فرقة إسلامية تشكّلت في القرن الثالث الهجريّ / التاسع الميلاديّ أنّهم أتباعها في المصادر العباسية بمشاركة الممتلكات ومنها النساء، وهنا منبع اهتمام المؤرّخة بهذه الفرقة. ترى الباحثة في هجوم المصادر العباسية على القرامطة محاولة رسمٍ لحدود هوية اجتماعية - سياسية تركز على الفرق بين المسلمين العباسيين الذين يشكّلون الغالبية وبين الآخر المتوحّش والشاذّ والمفتقر لأدنى مبادئ الأخلاق والحضارة. هنا تطرح المؤرّخة أسئلة عن كيفية كتابة تاريخ الفئات المهمّشة؟ عن أيّ تاريخ نتكلّم، وما هي القصة التي نكتبها؟ وهل تعبّر هذه القصص عن الفئات المهمّشة نفسها أو عن هواجس الفئة الغالبة؟

وبالنسبة الى الآخر البيزنطيّ ترى الشيخ أنّ المصادر العباسية في إضاءتها على الصور النمطية للرجل والمرأة والعلاقة بينهما في بيزنطية أو الروم تخدم بدورها الأيدولوجيا العباسية التي تبغى الحطّ من قيمة الحضارة البيزنطية. وهذا أمر فصله عدد من الباحثين ممّن اهتمّوا بالعلاقات العباسية - البيزنطية. فقوانين العائلة والزواج وعدمه متباينة بين الحضارتين، ورفض النموذج الاجتماعيّ -الأخلاقيّ البيزنطيّ يرسّخ النموذج الإسلاميّ العباسيّ. المرأة القدوة أو الكاملة هي موضوع الفصل الخامس والأخير من الدراسة. تتبّع المؤرّخة هنا روايات تُعنى بنساء حول الرسول أو صحابيات يشكّلن في الوعي الإسلاميّ نموذجاً يُقتدى. وترى المؤرّخة أنّ هذا النموذج موجود في القرآن (قصة السيدة مريم مثلاً) ورسّخته كتب السيرة والحديث والتاريخ. فالنساء الصحابيات يشكّلن نماذج للصلاح سواء في المنزل أم في المجتمع وحتّى في الحروب. وتركّز الباحثة هنا على صورة زوجتين للرسول هما خديجة وعائشة، والأخيرة كانت شكّلت تحدياً للمؤرّخين بسبب دورها في الأحداث السياسية التي تلت وفاة الرسول. كما خصّصت قسماً لامرأتين مثلتا نموذجين للطهارة في الإسلام هما فاطمة بنت الرسول ومريم. وتتبع الشيخ في كتابها تشكّل الهوية الإسلامية في مقابل الآخر الأنثويّ الماضي (الجاهلية)، والرافض (النائحة)، والآنيّ (نساء القرامطة والروم)، أو من خلال النموذج الداخليّ المثالي (النساء الصالحات). وهذا التتبّع لتشكيل الهوية يقدّم للقارئ رؤية جديدة وغنيّة للتاريخ العربيّ - الإسلاميّ منذ ما قبل الإسلام حتّى منتصف العهد العباسيّ من خلال قضايا الجنوسة. ونرجو أن تحذو محاولات أخرى حذو هذا الكتاب في مقارنة التاريخ العربيّ - الإسلاميّ من خلال عدسات مختلفة علّنا نستطيع تشكيل تواريخ مغايرة للتاريخ السياسيّ الرتيب الذي لا يزال رائجاً.

* باحث وأستاذ جامعي

أترك تعليقاً..

الاسم

الأحرف المتبقية: 1000 أرسل